بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فقد فرغنا في المرة الماضية من الكلام على حديث أبي ثعلبةَ الخشني، ونشرع اليوم إن شاء الله تعالى في حديث سهل بن سعدﷺ.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: **(عن أبي العبّاسِ سهلِ بن سعدٍ الساعدي ﷺ قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، دُلَّني على عملٍ إذا عمِلْتُهُ أحبَّني اللهُ وأحبَّني الناس؟ قال: اِزْهَدْ في الدُّنيا يُحبَّك اللهُ، وازهَدْ فيما عندَ الناسِ يُحبَّكَ الناسُ. حديثٌ حسن رواه ابن ماجهْ وغيرُه بأسانيدَ حسنةٍ).**

هذا الحديث حديثٌ عظيم، ذكر أبو داود السجستاني صاحبُ السنن وتلميذُ الإمام أحمد أنه من أصول السنن..وقد أحسَنَ المصنفُ رحمه الله لما جاء بهذا الحديث بعد حديث أبي ثعلبة؛ فإن من أقوى الأسبابِ التي تُوجِبُ انتهاكَ الحدودِ والتقصيرَ في الأوامر هو حبُّ الدنيا والإقبالُ عليها ومزاحمةُ الخلقِ فيها..وهذا الحديث تُكلِّم فيه كما سيأتي في آخره.

وقوله رحمه الله: **(عن أبي العبّاسِ سهلِ بن سعدٍ الساعدي ﷺ)** راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل سهل بن سعدِ بنِ مالكٍ الساعديّ الخزرجي، وهذا الصحابيّ كان يُسمّى "حَزْناً"؛ فسمّاه النبيُّ ﷺ"سهلاً"..عُمِّرَ بعد النبيّ ﷺ حتّى أدرك زمن الحجّاج، تُوَفِّيَ النبيُّ ﷺ وهو صغير، كان عمرُه خمسَ عشرةَ سنة..مات سنةَ ثمانٍ وثمانين تقريباً بالمدينة، والمشهور أنه آخرُ مَن تُوفي بالمدينة من الصحابة، وقيل آخرُ الصحابةِ وفاةً بالمدينةِ جابرُ بنُ عبدِ اللهﷺ.

وقوله ﷺ: "**جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله"دُلَّني**".. هذا فيه بيانٌ لحِرصِ أصحابِ النبيِّ ﷺ على معرفةِ ما يُرضي اللهُ عليهم، وانظروا وتأمّلوا أفكارَهم وهِمَمَهم وأسئلتَهم؟! شيءٌ عجيب! ، فعلاً هم أهلٌ للرضوان من الله..وسؤالُه هنا فيه سعادةُ الدارين؛ فإن الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه هو اللهُ ربُّ العزةِ والجلال، فمن وجَد اللهَ، وجد كلَّ شيء، ومن فقدَ الله فقدَ كلَّ شيء.

وقوله: "**دُلَّني**": أي: أرشِدني وبيِّن لي بيانَ نصيحةٍ ومُشفقٍ..وقوله: "**على عملٍ**" فيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الرِّضا والمحبةِ والحصولِ على النجاةِ هو العمل، فهذا الدين ليس فقط عقائد كما يظنُّ كثيرٌ من المسلمين، يظنونه فقط أعمالاً قلبية، يقول: ما دمْتَ تُحبُّ اللهَ فأنت مؤمنٌ ولو لم تعمَل شيئاً من الطاعات ولو لم تمْتثل، فالتقوى في القلب! وهذا الفهم خطأ، الإيمان: قول وعملٌ كما مرّ معنا في حديث جبريل، وكما قال ﷺ: "إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله إلا وهي القلب ".. ومَن ترك جنسَ العملِ لم يُتصوّر إيمانُه أصلاً؛ فمن كان في قلبه تقوى ظهر آثارُه على جوارحه ولابدّ.

وقولهرضي الله عنه: "**دلني على عمل إذا عمِلْتُهُ أحبَّني اللهُ وأحبَّني الناس؟**"..قدّم طلبَ محبّةِ الله لأنّه المقصدُ الأسمى، وكلُّ شيءٍ تابعٌ له أصلا..ولأنه من تحصَّل على محبّةِ الله الملكِ المدبّرِ المتصرّفِ في هذا الكون، تحصّل على كلِّ شيءٍ تبعاً، وفي الصحيح: "إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"...إلى آخر الحديث..وفي قوله: "**أحبني الله**" فقهٌ عظيم لهذا السائل الصحابي..فإنه لم يقُل: أحبَبْتُ الله؛ لأنَّ رأسَ الأمرِ هو الحصول على محبّةِ اللهِ للعبد، كما جاء في الآية: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.**﴾ **[آل عمران:٣١]**﴾..ذكر ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية قولَ بعضِ الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأنُ أن تُحَبَّ"، وهذا صحيح؛ فالذين يدّعون محبّةَ الله كُثُر، حتّى أهلُ الديانات الباطلة وأهلُ البِدع يدعون محبة الله ومع هذا فاللهُ سبحانه لا يُحبّهم كما أخبر في كتابه:﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ **[آل عمران:٣٢]**﴾ ، ثمَّ أمرٌ آخر: محبّةُ العبدِ لله ولرسوله واجبةٌ وليستْ مما يُسأل عنها من أمثالِ هؤلاء؛ فإنّ دينَ المسلم لا يكون صحيحاً ولا مقبولاً حتّى يحبَّ اللهَ ورسولَه..هذا أمرٌ مفروغٌ منه، ولهذا قال: (**دلّني على عمل إذا عملتُه أحبني الله**).

وقوله رضي الله عنه: (**وأحبّني الناس**) قد يقول قائل: ولماذا ينظر إلى محبّة الناس له؟! في الظاهر أنَّ هذا يُخالِف كمالَ أعمالِ القلوب! أليس كذلك؟! الجواب: ليس هناك تعارض، فالكلام ليس على الباعثِ والدافعِ للعبادة حتّى يردَ هذا السؤال، ولكنَّ الكلامَ على طلبِ محبّةِ الناس؛

فالسؤال حينئذٍ يكون هكذا: هل محبةُ الناسِ مطلوبةٌ في ذاتها؟ الجواب: طلبُ محبّةِ الناس بغير معصيةِ الله ومخالفةٍ لأمرٍ من أوامر الشريعةِ؛ جاء في الشريعةِ ما يدلُّ عليه، بل هو مأمورٌ به وبالسعي فيه بما أمر الله..والأدلّة على ذلك كثيرة جدًا؛ منها: أنَّ الله أمرَ بالإحسانِ إليهم والتودّد لهم، وهذا يورِثُ محبّتهم؛ فدل على أنَّ محبّةَ الناس مطلوبٌ شرعي. ومن ذلك ما جاء في قِصّةِ إسلامِ أمِّ أبي هريرة رضي الله عنه كما في "الصحيح"، فبعد إسلامِها قال أبو هريرة للنبي ﷺيَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: "اللهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمِ الْمُؤْمِنِينَ"..فهذا واضِحُ الدلالة في طلبه شرعاً، إذ أقرّه النبيُّ ﷺ ودعا له..ومن ذلك ما امتنَّ الله به على نبيّه موسى ﷺ إذ قال ربُّ العزةِ والجلال: ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** ﴾ (**سورة طه: آية : ٣٩**﴾ . ..وهذه نعمةٌ عظيمة، وهذا أمر مشاهد محسوس؛ فإن العقلاء ينفقون أموالَهم والجاهَ أيضاً للحصول على محبّةِ الناس..واللهُ سبحانه جل وعلا وصفَ الصحابةَ المؤمنين بصفة المحبةِ فيما بينهم كما قال ربُّ العزةِ والجلال: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾ **الحشر :٩** ، وفي الصحيح: (ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه)، وفي الصحيح يُنادي ربُّنا أهل الموقف: (أين المتحابّون بجلالي؟ اليوم أظلّهم في ظلّي يومَ لا ظلّ إلا ظلّي)، وفي السنن عندما قال رجل للنبي ﷺ إني أحبُّ فلاناً، فقال له النبيُّ ﷺ هل أعلمتَه؟ قال: لا، فقال له النبيُّ ﷺ (أعلِمْهُ) وهذا كلّه لتحصُل المحبةُ من الطرفين؛ وكونُك تحبُّ الناسَ هذا أمرٌ سهل، ولكن كيف يُحبُّكَ الناس؟! هنا السؤال..ولهذا كلِّه قال العلماء: الحصولُ على محبّةِ الناس بغير معصيةِ اللهِ مطلبٌ شرعي، وفيه أيضا ملحَظٌ آخر: حصولُ محبّةِ الناسِ علامةٌ ودليلٌ على محبّةِ الله كما مضى في حديث السابق:" إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"..فلازمُ محبةِ الله محبةُ الناسِ، ولذلك قال بعضُ العلماء: الواو هنا في قوله: **(أحبني الله وأحبني الناس)** جاءت لعطفِ المسبَّب على السبب، فسببُ محبةِ الناسِ للعبد هي محبةُ اللهِ له..وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّا**﴾(**سورة مريم : ٩٦**) ، قال ابن عباس ﷺ في تفسيرها: "يُحبُّهم ويُحبِّبُهم إلى

الناس"..وهذا كلُّه كما قلنا في غير معصيةِ الله، لأننا أصلاً نطلبُ محبةَ الناس طاعةً لله؛ فكيف نعصيه للحصول على محبّتِهم؟! هذا لا يمكن..ومن هنا نعرِفُ خطأً وجهلَ من يقول: لا يهمّني الناس، ولا أريدُ رضاهم أبداً في كل الأحوال..لا..طلبُ رضاهم في غير معصيةِ الله مطلبٌ شرعي، فيُحسِن إليهم ويتعاهدهم بالهديةِ والكلمة الطيبة وطلاقةِ الوجه كما قال **تعالى** **(وقُولُوا للنَّاسِ حُسْنا)** ***البقرة :٢*** ..لكن انتبه؛ يحتاج إلى مراقبةٍ للنفس وتعديلٍ لمسارها كلما انحرفَت وقصدَت برضاهم الدنيا.

وقولهﷺ: (**اِزْهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّك اللهُ**)..الزهد في اللغة: خلاف الرغبةِ، فهي في الأصل بمعنى الإعراض عن الشيء احتقاراً له، ولأنه ليس ذا بالٍ عنده..هذا من ناحية اللغة؛ وأما تعريف الزهد في الشرع فأمرٌ اختلفَ فيه عبارات الأئمة، وذكروا فيه كلاما كثيراً جداً، إذا تأمله الناظر استطاع أن يخرج بأركانٍ أساسيةٍ وأصول جوهرية توضّح له المعالم..وزبدةُ هذا المبحث أن الزهدَ عملٌ قلبي كما قال ابن رجب رحمه الله، ويُوضِّحه قولُ الإمامِ أحمد رحمه الله: الزهد في الدنيا قِصَرُ الأمل، والإياسُ مما في أيدي الناس..فالزهد شيءٌ في القلب لا تعلّقَ له بالظاهر، ولذلك يقول العلماء: لا تشهد لأحدٍ بالزهدِ، فإن الزهدَ في القلب..وعلى هذا؛ قد يكون الإنسان ذا مالٍ وفير كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهم من الصحابة الأثرياء جدا، ويكون من الزاهدين، قلبُه معلّقٌ بالله وبالآخرة، وقد جاء في الصحيح: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق)، فجعل هذا الغني في مقام الغِبطة، وفي الحديث: " نِعمَ المالُ الصالحُ للعبدِ الصالحِ "، وداود وسليمان ملوك، وهم رءوس الزهادِ ولا شكّ، وقد يكون الإنسانُ فقيراً صِفْرَ اليدين، لكنه من أهل الدنيا، قلبُه معلّق بها، متشوّفٌ إلى ما في أيدي الناس، معتقدٌ جزما أنَّ سعادتَه وفلاحَه ونجاحَه بالحصول على الدنيا..وقد نَقَلَ الخلّالُ عن الإمام أحمد كما قال ابن مفلح وغيرُه أنّه سُئِلَ رحمه الله عن الزاهد؛ هل يُمكِنُ للمرءِ أن يكون زاهداً ومعه ألفُ دينار –يعني من الذهب وهذا مبلغٌ كبير جداً في زمنهم–؛ فقال رحمه الله: نعم، بشرط لا يفرح إن زادَتْ، ولا يحزَن إن نقصَت..بل قال بعضُ العلماء: لا يُتصوّر الزهدُ مما ليس له مالٌ ولا جاه..طبعا هذا القول الأخير أراه بعيداً عن تقرير المحقّقين؛ فالفقير قد يكون زاهداً وذلك بعدم تعلُّقِ قلبِه بالدنيا وزينتِها.

وسببُ قولِ بعضِ العلماء لهذا القول عبارةٌ قالها ابنُ المبارك، لكن لا يتسّع المقام للمناقشةِ والبيان.

يقول تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: حقيقة الزهد المشروع أن يكون حبُّه وبغضه تابعاً لحبِّ الله وكراهته، فلا يتبع هواه..ثم ذكر رحمه الله أن كثيراً من الزهّاد في الدنيا أعرضوا عن فضولها لكنهم مع هذا لم يُقبِلوا على ما يحبُّه الله ورسولُه، وقال: هذا ليس من الزهد الذي أمر اللهُ به، ولو كان كذلك لكان المشركون وأهلُ البِدَع ممن أعرضوا عن الدنيا زهادا..وذكر أن من الناس مَن يزهَد في الدنيا وفي فضلوها لكن ليس لله، بل هرباً من مغبّتِها ومسألةِ الناس..أو طلباً للوجاهةِ والرياسة..وانظروا لدقة هذا الكلام..وطريقة الحصول على هذه الصفة هو الاجتهادُ في فعل المأمور وترك المحظور..والاستعانةُ بالله على طاعته..واستدلَّ بقول النبيِّ ﷺ: "احرِصْ على ما ينفعُك واستعنْ بالله ولا تعجَز"، ولذلك قال تقي الدين في تعريفه للزهدِ: (تركُ ما لا ينفَع في الآخرة)، فيشمل المحرمات والمكروهات والمشتبهات وفضول المباحات ؛فقط الفضول، وأما ما ينفَع فتركُه ليس زهداً، وعلى هذا؛ تركُ جميعِ المباحات لا يُعينُ أبداً ولا ينفَع في الآخرة، بل هو منهيٌّ عنه، وأما الذي ينفَع فهو تركُ فضولِ المباحات، انتبهوا: فضول المباحات كما قرّر ذلك ابن تيمية رحمه الله وذكر لذلك أدلةً، وهذا مما يُعينُ على الآخرة..ومن جميل ما يُذكَر هنا قولُ أحدِ السَّلف: "الزهدُ تركُ ما شغلَك عن الله"..إذن خلاصةُ هذا المبحث أنَّ الزهدَ عملٌ في القلب، لا علاقةَ له بغنى الإنسانِ أو فقره، ولا علاقةَ له بالمال كمالٍ، وإنما الزهدُ كما ذكر بعضُ السلف: اليقينُ على اللهِ، وتعلّقُ القلبِ بهِ وبوعدِه ووعيدِه، وبثوابِه على كل ما أصابَه، ويستوي عندَه مدحُ الناسِ وذمُّهم في غير معصية طبعا..ومما ذكره ابن تيمية رحمه الله في الفرق بين الزهد والورع؛ قال: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، وأما الورع فأقل درجةً من الزهد، وهو ترك ما قد يضرّ في الآخرة، فيشمل المحرمات وما فيه شبهةٌ..إذن: لا يمكن أن تكون زاهدا حتّى تكون ورعاً.

وقوله ﷺ: **(ازهَد في الدنيا)** الدنيا سُمِّيَتْ دنيا لدنوِّها، فهي أقرب من الآخرة زمنا، وكذلك أدنى منها قيمةً، فهي حقيرةٌ بالنسبةِ للآخرة، وما فيها من نعيم وغيرِه..وما هو المراد بالدنيا هنا في هذا السياق؟ فيها أقوالٌ كثيرة، والخلاصة: دنيا كلِّ شخصٍ بحسَبِه؛ فدنيا العالم تختلف عن دنيا الغني والتاجر والمزارع وصاحبِ الإبل...إلخ، فمثلاً العالِمُ له دنياه التي ينبغي أن يزهَدَ

فيها، بحسب حاله، فزهدُه ألا ينظرَ لثناءٍ أثناء كلامهِ وتقريرِه وشرحه لحظِّ نفسِه عند طلاّبهِ وعند الناس، وزُهدُ السلطان ألاّ يزهوَ بنفسِه على رعيّتِه، ولا يرى له حقّاً يخوّله في ظلمِهم، ولا يتعلّق بهذا المنصِبِ للجاه والمال ونحو ذلك، والكلام على هذا يطول في الحقيقة..وقولهﷺ: **(ازهَد في الدنيا)** هل هذا ذمٌّ لذات الدنيا بما فيها؟ هل الذمُّ يرجع عليها لذاتِها؟ الجواب: جاءتْ نصوصٌ كثيرة تُبيّنُ مِنَنَ اللهِ على عباده بما أودَع لهم في هذه الخليقة، قال تعالى: ﴿هو الذي خلقَ لكم ما في الأرض جميعا﴾ وهذا في مقامِ الامتنان، وقال تعالى: ﴿قل مَن حرَّم زينةَ اللهِ التي أخرج لعبادهِ والطيبات من الرزق﴾، وهذا لا يُقال في المذموم، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾، وفي الحديث"أنَّ الله يُحبُّ أن يرى أثرَ نعمتِه على عبده"..و الذمّ في الحقيقة راجعٌ إلى أفعال الناسِ في هذه الدنيا، فمَن نظر للدنيا نظرةَ حرصٍ وإقبالٍ دون اعتبارٍ للمقصد الذي خُلِقَ من أجله أفسدَ فيها، وأخذها على وجهٍ غير شرعي، وكان في فعلِه الظلمُ والغِشُّ والخديعةُ وسوءُ الخُلُق والغفلةُ كما قال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون* أولئك مأواهم النارُ بما كانوا يكسبون﴾..وقال تعالى: ﴿كلا بل تُحبون العاجلة* وتذرون الآخرة﴾ فجعل الحبَّ المذمومَ هنا ما يُؤَخِّرُ بسببه الآخرة، وكما قال تعالى: ﴿بل تؤثِرون الحياةَ الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾، فعبّر بـ "تؤثرون" أي: يُقدّمون الدنيا والاستكثارَ منها على عمل الآخرة والفرائض والواجبات؛ فهذا هو المذموم..وأمّا مَن أخذها بعين الامتثال، وجعلها زاداً للآخرة؛ فهي له أجرٌ وفي شهوتِه أجرٌ كما صحّ بذلك النصوصُ والآثار..وليس من الزهدِ تركُ التكسّبِ أو التجارةِ النافعةِ والطيباتِ التي تعينه على آخرته ثم بعد ذلك يعيشُ على الصدقاتِ وأموالِ الناس..ولذلك يُفرّقون بين المتوكّل والمتأكّل!!..والكلام على هذا يطول جدًا..قد يقول قائل: هذا التقرير يُخالِفُ في ظاهره قولَ النبيّ ﷺ: "مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحتَ ظلِّ شجرةٍ ثم راح وتركها"! والجواب: هذا متوجّهٌ لتعلّق القلب بها، وأما الانتفاعُ بها فحاصلٌ من النبيّ ﷺ ومن صحابته، وهذا الحديث نفسُه يدلُّ عليه؛ فإنه استظلّ في ظلِّ الشجرة واستفاد منها وارتاح فيها وجعلها وسيلةً معينةً في سفره، ولذلك تزوّج النبيُّ ﷺ وأكل الطعامَ ولبِسَ الفاخرَ من الثيابِ ويُحبُّ الطيبَ ويمشي في الأسواق كما جاء في النصوص.

وقولهﷺ: (**ازهَد في الدنيا يُحبَّكَ الله**)..في هذا إثباتٌ لصفة المحبة لله على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، وهي صفةٌ اختياريّةٌ ثابتةٌ بالكتاب والسنةِ والإجماع، ولا خلاف في هذا بين أهل السنة، فالله يُحبُّ عبادَه، وعبادُه يُحبونه كما قال سبحانه: ﴿يُحبُّهم ويُحبّونه﴾، وقد أنكرها الجهمية من الطرفين ؛من جهة الله سبحانه وتعالى ومن جهة العبد فقالوا :لا الله يحب ولا العبد يحب الله ،وأهل الكلام من الأِشاعرة والماتريدية أنكروا المحبةَ من طرفِ الربِّ جلّ وعلا، وليس هذا محلَّ بسطٍ لهذه المسألة..وقد ذكر ابنُ القيّم عشرةَ أسبابٍ تُوجِبُ محبةَ الله في كتابه النفيس (مدارج السالكين).

وهناك أمورٌ تدفَع الإنسانَ إلى الزهدِ في الدنيا؛ منها أن يستحضِر دائما أنها دارُ ممرّ لا مقرّ، وأننا جميعاً منتقلون من هذه الدار، وأنها لا تُنالُ بسهولة كما يتصوّره كثير من الناس؛ بل هي أصعبُ بكثير من الحصول على الدين، ويستحضر الإنسانُ قيمتَها عند اللهِ سبحانه العليمِ الخبيرِ الذي خلقها، وقال: (إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها) ليست لنا، لم يقل: لكم! قال: لها..فهذه الدنيا رخيصةٌ عند اللهِ، والنصوص في ذلك كثيرة، منها أنَّ النبيَّ ﷺ مرّ في السوق والصحابة معه، فوجدَ جَدْياً من الغنم أسكَّ وهو من أرخصِ أنواع الغنم عند العرب، وميّت كذلك، فأخذ النبيُّ ﷺ بأذنه وقال: "مَن منكم يُريد هذا بدرهم؟ فقالوا: يا رسول الله، ما نحب أنه لنا بشيء..فقال: "أتحبون أنه لكم ؟"يعني ولو بلا ثمن..فقالوا: يا رسول الله، لو كان حيا كان عيبا هذا أسكّ وميت..فقالﷺ معلما أصحابَه ومربياً لهم: "والله للدنيا أهونُ على الله من هذا عليكم"..الدنيا بسيطة، لا تستحق من العبد هذا التعلق الشديد..الأمر الآخر: نستحضِرُ عِظمَ الآخرة، وطولَها، ونعيمَها وجحيمَها..ولذلك دائما أقول: قراءةُ النصوصِ عن الجنةِ والنارِ والمغيباتِ والآخرة مهمة جدا، وهي موجودة في جملة من الكتب، من أجمعِها وأفضلِها ترتيباً وصحةً (رياض الصالحين).

وقولهﷺ: (**وازهَد فيما عند الناسِ يُحبَّك الناس**)..وهذا مما جُبِل عليه البشر، كلما زَهِدتَ فيما عندهم أحبوك، وإذا نظرْتَ فيما إلى ما في أيديهم ازدروك..هذه طبيعة البشر؛ وفي ذلك يقول الحكيم:

ولو سُئِلَ الناسُ الترابَ لأوشكوا***إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا.

هذا في التراب الرخيص المتوفّر؛ فكيف بغيره؟!

ويقول الآخر:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدمَ حاجةً*** وسلِ الذي أبوابُه لا تُحجَبُ

اللهُ يغضبُ إن تركت سؤاله *** وبني آدم إذا يُسأل يغضب

ومِن جميل ما يُذكَر هنا قولُ الإمام الشافعي:

ومن يَذُقِ الدنيا فإني طعَمْتُها *** وسيقَ إلينا عذبُها وعذابُها

فلم أرَها إلا غروراً وباطلاً ***كما لاح في ظهر الفلاة سَرابُها

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ *** عليها كلابٌ هَمُّهُنَّ اجتذابُها

فإن تجتنبها كنت سِلْماً لأهلها *** وإن تجتذِبْها نازعَتْكَ كلابُها

فدع عنك فضلات الأمور فإنها *** حرام على نفس التقي ارتكابها

والزهد فيما عند الناس يشمَل المالَ وكذلك الثناءَ والشكرَ؛ فازهَد فيها، واطلُبِ الجزاءَ من الله ﴿إنما نُطعمكم لوجه اللهِ لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾..قد يقول قائل: ألا يدخل الزهدُ فيما عند الناس تحتَ قولِه (**ازهَد في الدنيا**)؟ الجواب: يدخل تحتَها؛ ولكنه أفردَها بالذكرِ لِعَظم أثرِها ومنفعتِها للمسلم الداعي إلى الله، وهذا هو الأصل؛ أن يكون المسلم داعيا إلى الله..أنقلُ لكم كلاماً لتقي الدين ابن تيمية رحمه الله نفيسا جداً، فرأيتُ من الفائدةِ أن أسوقَه بتمامه، قال رحمه الله: " الْعَبْدُ كُلَّمَا كَانَ أَذَلَّ لِلَّهِ وَأَعْظَمَ افْتِقَارًا إلَيْهِ وَخُضُوعًا لَهُ: كَانَ أَقْرَبَ إلَيْهِ، وَأَعَزَّ لَهُ، وَأَعْظَمَ لِقَدْرِهِ، فَأَسْعَدُ الْخَلْقِ: أَعْظَمُهُمْ عُبُودِيَّةً لِلَّهِ. وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ فَكَمَا قِيلَ: احْتَجْ إلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ، وَاسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَحْسِنْ إلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ:

بَيْنَ التَّذَلُّلِ وَالتَّدَلُّلِ نُقْطَةٌ *** فِي رَفْعِهَا تَتَحَيَّرُ الْأَفْهَامُ.

ثم قال رحمه الله :

فَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ قَدْرًا وَحُرْمَةً عِنْدَ الْخَلْقِ: إذَا لَمْ يَحْتَجْ إلَيْهِمْ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ إلَيْهِمْ مَعَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ: كُنْتَ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ، وَمَتَى احْتَجْتَ إلَيْهِمْ – وَلَوْ فِي شَرْبَةِ مَاءٍ – نَقَصَ قَدْرُكَ عِنْدَهُمْ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ. وَلِهَذَا قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ، لَمَّا سُئِلَ فِيمَ السَّلَامَةُ مِنْ النَّاسِ؟ قَالَ: أَنْ يَكُونَ شَيْؤُك لَهُمْ مَبْذُولًا وَتَكُونَ مِنْ شَيْئِهِمْ آيِسًا، لَكِنْ إنْ كُنْتَ مُعَوِّضًا لَهُمْ

عَنْ ذَلِكَ وَكَانُوا مُحْتَاجِينَ، فَإِنْ تَعَادَلَت الْحَاجَتَانِ تَسَاوَيْتُمْ كَالْمُتَبَايِعَيْنِ لَيْسَ لِأَحَدِهِمَا فَضْلٌ عَلَى الْآخَرِ وَإِنْ كَانُوا إلَيْكَ أَحْوَجَ خَضَعُوا لَكَ. فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ: أَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ. وَأَفْقَرُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ. وَالْخَلْقُ: أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ مُحْتَاجُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حَوَائِجَكَ، وَلَا يَهْتَدُونَ إلَى مَصْلَحَتِكَ، بَلْ هُمْ جَهَلَةٌ بِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ إلَى مَصْلَحَةِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يُرِيدُونَ مِنْ جِهَةِ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا عِلْمَ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إرَادَةَ. وَالرَّبُّ تَعَالَى يَعْلَمُ مَصَالِحَكَ وَيَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَيُرِيدُهَا رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا".انتهى كلامه رحمه الله، ما أجملَ هذا الكلام وهو كلامٌ صحيح مجرّبٌ، وخصوصاً الداعي وطالب العلم يجب أن يكون أبعدَ الناسِ عن السؤال والنظر لما في أيديهم؛ ومَن اعتاد على أخذِ شيءٍ منهم؛ لم يُؤبَه له، ولن يُسمع له، ولذلك أقول: لا ينبغي لطالب العلم أن ينشغِلَ ويتوسّع في جمع التبرعات، يحثُّهم نعم، لكن إن استطاع أن يُكفَى في الأخذ فهذا أولى وأنفع حالاً ومآلاً، وقد جرّبنا مراراً غبَّها وعاقبتَها..طيب: إن جاءَه شيءٌ بطيبِ نفسٍ، من بابِ إدخالِ السرورِ على قلبِ أخيه بقَبول ما عنده؛ فهذا جائزٌ، وأدلّته كثيرة ولكن الوقت يُداهمنا..والذي يُلاحِظُ أحوالَنا في هذا الزمن؛ يجدُنا من أكثر العصور إقبالاً على الدنيا وزينتِها، وانشغالاً بها عن المقصد الذي خلقنا اللهُ من أجلِه..والمطلوب أن تكون الدنيا مطيّةً للآخرة، وأن نجعلها في أيدينا لا في قلوبنا..سمعْتُ بعضَ الحكماء المربّين يقول: المؤمنُ يعيشُ في الدنيا كالسفينة في البحر؛فالسفينة لا تمشي في البر، مكانها البحر..ولكن يجِبُ ألا يدخلَ البحر في جوفها؛ فإن دخل في جوفِها غرقَتْ وهلك مَن فيها..وهكذا المؤمن، يعيشُ في الدنيا وقلبه في الآخرة؛ ولكن يجِبُ ألا تدخلَ الدنيا قلبَه، وأن يجعلَها في يديه، والدينُ وأمرُ اللهِ في قلبه؛ فمتى ما تعارضَ الدين مع الدنيا، ألقى ما يده وتخلّى عنه وبقي الدين في قلبه ..جعلنا الله وإياكم من الزاهدين في الدنيا المقبلين على الله والآخرة.

وقول المصنف رحمه الله: (**حديثٌ حسن رواه ابن ماجهْ وغيرُه بأسانيدَ حسنةٍ**) هذه العبارة فيها مباحث، نتركها اختصاراً نقول: الحديث معلولٌ وإن صححه بعض العلماء، وهو

ضعيف من ناحية الإسناد، فلا يثبت عن النبي ﷺ أنه قاله، لكن معناه صحيح، دلّت عليه النصوصُ الأخرى الكثيرة.

ثم قال المصنفُ رحمه الله تعالى: (**عن أبي سعيدٍ سعدِ بنِ مالك بن سِنانٍ الخُدْريّ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: "لا ضَرَرَ ولا ضِرار". حديثٌ حسنٌ رواه ابنُ ماجهْ والدارقطني وغيرُهما مسنداً، ورواه مالكٌ في الموطّأِ عن عمرو بن يَحيى عن أبيه عن النبيّ ﷺ مُرسلا، فأسقطَ أبا سعيد. وله طرقٌ يُقوّي بعضُها بعضا**).

هذا الحديث حديثٌ عظيم، وقد اتُّخِذَ قاعدةً كبرى من قواعد الفقه..يقول أبو داود رحمه الله: (هذا من الأحاديث التي يدور عليها الفقه).

وقوله رحمه الله: (**عن أبي سعيدٍ سعدِ بن مالك بنِ سِنانٍ الخُدْريّ ﷺ**) راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سِنان الخزرجي المشهور بكنيته "أبي سعيد الخدري"، وهو من الصحابة المكثرين من الرواية، وهو وأبوه صحابيان، فأبوه استُشهِد في أحد، وأما أبو سعيد فكان صغيرا في أحد، ولكنه حضر الخندق، وهو من العلماء الكبار، وله أخبار كثيرة عجيبة، توفي سنة أربع وسبعين وعمره أربع وتسعون سنة..ودُفِنَ بالبقيع.

وقولهﷺ: (**"لا ضَرَرَ**) اللام هنا نافية بمعنى النهي، وهذا أسلوبٌ معروف في اللغة، ومنه قوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾، فهنا نفي بمعنى النهي، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ "لا تعبدون" هذا نفي لم يقل لا تعبدوا قال "لا تعبدون" لكنه بمعنى النهي..واللام في قوله ﷺ: (**لا ضررَ**) نافيةٌ للجنس، وقد مضى معنا في شرح الآجرومية أنَّ النافية للجنس لابدّ لها من خبر، فأين الخبر هنا؟! ذكر أهل العلم تقديرات كثيرة، منها أن الخبر (لا ضرر في ديننا) أو (في شريعتنا)؛ فما جاء في تشريع هذا الدين العظيم الميسَّر؛ لا يمكنُ بحالٍ أن يكون فيه ضررٌ على المكلّف.

وقولهﷺ: (**ولا ضِرار**)..اختلف العلماء في تفسيرهم لهاتين الكلمتين؛ هل هما بمعنى واحد؟ فإن لم يكونا كذلك؛ فما هو الفرق بينهما؟

الضَرَر: بفتح الضاد ضدُّ النفع كما ذكر في المصباح وغيره، وأمّا كلمة **"الضِرار"** فقد اختلف أهلُ العلم في تفسيرها على أقوالٍ كثيرة، أذكرها دون مناقشة، ومناقشتُها في الشرح المطوّل.

القول الأول: أنَّ الضِرار بمعنى الضَّرَر سواء بسواء، وهو ظاهر كلام الجوهري؛ فأتي بها للتوكيد فقط..وخذوها قاعدة ذكرها جمعٌ من الأئمة: التأسيس أولى من التوكيد..وعلى هذا؛ فالأولى أن نقول بينهما فرق.

القول الثاني: أن الضررَ والضرار مثلُ القتلِ والقتال، فالضِّرار فيها معنى المقابلة؛ فهو إلحاقُ الضررِ بالغير على جهةِ المقابلة والجزاء، وليس ابتداءً، وأما الضررُ فإلحاقُ الضررِ بالغير على جهة الابتداء..وعلى هذا القول يكون المعنى: لا ضرر يعني لا تضرَّ أحداً جِنايةٍ عليه بغير حق، لأنه ممنوع في الشريعة، ولا ضرار بمعنى: لا تضرّ مَن تسبّب بالضررِ عليك؛ لا تضر من أضرّك، ولا تقابل الخطيئة بمثلها؛ فإن هذا ينافي الكمال وينافي الإحسان، (والله يحبُّ المحسنين)، أو ارفَع الأمرَ للقضاءِ وإن عفوتَ فهو أفضل..يعني تقريبا يكون المعنى نحو هذا.

القول الثالث: الضَّرر ما حصل بغير قصد، والضِّرار ما كان بقصد وعَمد..ويكون المعنى: منعَ الضرر سواء بقصدٍ أو بدون قصد، كلٌّ منها يُزالُ ويُمنَع وتُسدَّ منافذُه، وفيها الضمان والتعويض ولو كان بلا قصدٍ على تفصيلٍ يذكره الفقهاء.

القول الرابع: الضَرَر هو الاسم، والضِرار هو الفعل؛فيكون المعنى على هذا القول: لا ضرَرَ في الشريعة في أحكامِها، فمن عجَزَ عن شيءٍ ذهب إلى بدلٍ أو بدون بدلٍ في كثير من الصور والمسائل، ولا يجوز أن تفعلَ الضررَ وتضُرَّ أحداً.

القول الخامس: الضرر ما كان من الفاعل، والضرار ما كان عليه؛ فكأن النهي منصبٌّ على عدم فعل الضرر، وعدم جوازِ وقوعهِ عليك.

القول السادس: الضَّرَر إلحاقُ الضرر بالغير على وجهٍ يعود على الفاعل بالنفع والمصلحة، والضِّرار إلحاقُ الضرر بالغير على وجه لا يعود بالنفع ولا بالمصلحة على الفاعل..يعني بدون أن ينتفع الفاعل؛ نسأل الله السلامةَ والعافية..هذا في غاية السوء، الله يعافينا جميعا..وهذا

القول مشهور عن ابن عبد البَر وابنِ الصّلاح..هذه ستةُ أقوالٍ وقفْتُ عليها في تفسير هذا الحديث..وهذا من ناحية دلالةِ الحديث نفسِه، وإلا فأكثر هذه الأقوالِ صحيحةُ المعنى من نصوصٍ أخرى.

والضرر المنهي عنه هنا هو الضرر بغير حقّ، والذي ليس له موجبٌ شرعاً، وأما إذا كان بحقٍّ وله موجبٌ شرعاً كالضرر الحاصل بالحدود والتعازير، فهذا ضررٌ بحقٍّ لدفعِ ضررٍ أعظم وأكبر، ولا جدالَ في هذا.

وأتناول هذا الحديث عن طريق ذكر مسائل:

المسألة الأولى: لا يوجد في أحكام هذا الدين ولله الحمد والمنة أيُّ ضررٍ على المكلّف، فمن عجَز عن الصيام انتقل إلى الإطعام والقضاء ، ومَن عجَز عن الحجِّ أناب نائباً أو سقَط عنه على تفصيل يذكره الفقهاء، وكما قال ﷺ: (إنَّ الدينَ يسرٌ)، وقال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسرَ ولا يريد بكم العسر﴾؛ فليس علينا إلا البحثُ عن مراد الله، فإذا عرفْتَ المرادَ والمطلوبَ فالزمْه؛ فإنه واللهِ يسرٌ، ولن تجِدَ ألطفَ ولا أرحمَ من الله، لا قانون ولا أم ولا أب ولا طبيب ولا غيرَه.

المسألة الثانية: لا يجوز للمسلمِ أن يضرَّ نفسَه بأي أنواعٍ من الضرر، فإنَّ ذلك ممنوعٌ، وإدخالُ الضرر على النفس قد يكون بضرر دنيوي: كقتلِ نفسِه أو ما دون ذلك كالوشمِ والتدخين وتناولِ ما يعود بالمضرةِ وما شابه ذلك، وبعضُهم أدخل بيع الأعضاء وفيه خلافٌ بين المعاصرين، وقد يكون بضرر ديني وهذا أشدُّ وأعظم، وذلك بالمعاصي، فإن المعاصي والذنوبَ شؤمٌ على الإنسانِ، ومهلكةٌ له في الدنيا والآخرة.

المسألة الثالثة: لا يجوزُ للمسلمِ من باب أولى أن يضرَّ بغيره، لا في أمور الدنيا ولا في أمور الدين؛ أمور الدنيا: مثل التضييق على غيره في مواقف السيارات..أمور الدين مثل: الوصية؛ فلا يجوز للمسلم أن يوصي لشخصٍ لأجلِ الإضرارِ بالورثةِ كما قال تعالى: ﴿من بعد وصيةٍ يُوصى بها أو دين غيرَ مضارّ﴾..ومنها ما جاء في القرآن من إدخال الضرر على المرأة من

قِبَل وليِّها كما قال تعالى: ﴿ولا تُمسكوهنَّ ضِراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسَه﴾..ومنها إدخال الضرر على الرضيع أو على أمّه كما قال تعالى: ﴿لا تُضارَّ والدةٌ بولدِها ولا مولودٌ له بولده﴾..ومنها إدخال الضرر على الشهود وعلى الكاتب كما قال تعالى: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيد﴾..والكلام على هذا يطول، لكن الوقت انتهى.

نختم بهذه المسألة: هل يجوز للمكلَّفِ أن يفعل في ملكهِ ما يعود بالنفعِ عليه، يعني يفعل مصلحةً لنفسه معتبرةً وبغرضٍ صحيح لكنها تُدخِلُ الضررَ على غيرِهِ؟ من أشهرِ ما يُمثِّل له الفقهاء في كتبهم فتحُ المنافذ على جارٍ يتأذّى منها، ومن أمثلةِ ذلك: العملُ في بناءٍ ونحوه يُدخِلُ الضررَ عل الجار، ومنها وضعُ غنمٍ في بيته بالقربِ من جاره، فتؤذيهم برائحتِها وهم مثلاً في مدينةٍ لا قرية..هذه المسألة فيها اختلف فيها أهل العلم؛ فمنهم مَن منع ذلك مطلقاً، ومنهم من منعَ ما لم تجرِ به العادة، فلو مثلاً جرَتْ العادةُ بوضعِ الغنم في حائطهِ؛ فإنه يجوزُ مثلُ ذلك ولو عاد بشيءٍ من الضررِ على الجار، لأنَّ أمورَ الناسِ ومعاشَهم لا يصلُح بغير هذا، وهذا ضررٌ مغتفرٌ.

وقوله رحمه الله: (**حديثٌ حسنٌ**) يعني مقبول، وهذا الحديث متكلّمٌ فيه عند جمعٍ من أهل العلم، وبعضُهم حسّنه لشواهدٍ وعملِ الأئمة به، والذي يظهر أنه مقبولٌ، وعلى كل حال الأئمة يعملون به.

وقوله (**رواه ابنُ ماجهْ والدارقطني وغيرُهما مسنداً**)..في الشرح المطوّل كلامٌ على ابنِ ماجهْ والدارقطني ،والمسند: ما اتصل سنده مرفوعاً إلى النبي ﷺ، هذا الذي عليه أكثر المتأخرين.

وقوله رحمه الله: (**ورواه مالكٌ في الموطّأِ عن عمرو بن يَحيى عن أبيه عن النبيّ ﷺ مُرسلا، فأسقطَ أبا سعيد**)..الكلام على الإمام مالك وكتابه يطول، وهذا الإمام الإمام مالك نجمٌ في سماءِ المحدثين كما ورد عن الشافعي، وهو من المتشدّدين في رفع الأحاديث، فيرسلها عند الشكّ والتهمة، والمرسل ما سقط منه ما فوق التابعي، هذا هو المشهور عند المتأخرين.

وقوله: (**وله طرقٌ يُقوّي بعضُها بعضا**)..يعني: بجمع الطرق تقوّى الحديث عند المصنّف.

والله تعالى أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .